نشاط البعثة الدنمركية الاثرية

على الساحل الفينيقي عام ١٩٥٩

للأستاذ : ب . ج . ريس

تعريب وتلخيص

الاستاذ حسن كمال

كان خريف عام ١٩٥٩ (١) موعد الموسم الثاني للبعثة الاثرية الدنمركية التي قدمت الى سورية موفدة من قبل مؤسسه كالسبرغ في كوبنهاغن لمتابعة حفرياتها على الشاطىء الفينيقي القديم ، وتضم البعثة هذا العام علاوة على اعضائها الخمسة (السادة فوغمان غيوديسن وتران وڤيتي وكاتب المقال) المهندس المساعد جورج رودر وعالم الخطوط غاي بار والآنستان ايڤلين اولدنبورغ وغونيل بلوغ المختصتين بالآثار والسيدة انيليز أولسون .

وقد حظيت البعثة في هذه المرة بما حظيت به في المرة الاولى من المساعدات من جانب السلطات الرسمية والمواطنين ، ولا يسعنا الا ان نشيد بالمعونة القيمة التى لقيناها من مديرية الآثار العامة وبصورة خاصة معونة مديرها العام الدكتور سليم عادل عبد الحق والعاملين معه وقد مثل المديرية السيد سليمان المقداد الذي أنجز مهمته على خير وجه . كما تعرب البعثة لقائد المنطقة السيد توفيق المملوك عن كبير تقديرها لاهتمامه البالغ في أعمالها والعمل على تسهيلها . كما يطيب لنا ان نشكر وزارة الخارجية الدنمركية وقنصل الدنمرك العام في دمشق ، والمتحف الدنمركي ومعامل كالسبرغ للجعة .

استهلت البعثة اعمالها في السابع من آب وانتهت منها في ١٠ كانون الاول ، وتابعت

---

(١) راجع التعليقات والحواشي ومراجع البحث في المقال الاصلي في القسم الاجنبي من المجله (المعرب)

حفرياتها خلال هذا الموسم في تل سوكاس ، وقامت بحفر سبر بالقرب من نهر السن في تل داروك ، اما العمل في تل سوكاس نفسه فقد استمر من السادس من ايلول حتى الرابع عشر من تشرين الثاني ، وفي تل داروك ، من اول ايلول لغاية الخامس والعشرين من تشرين الاول . ولم تقف البعثة في عملها عند هذا الحد وانما أخذت تبحث عن بعض المواقع الاثرية في سهل جبلة والتي نضيف أسماءها في القائمة التي سبق ان نشرناها في تقريرنا الاول : قرية بازيزان ، والعيدية ، والبرغان ، والاشرفية ، وخرائب البندقية ، وجب القبو ، وخربة ثالثة مجهولة الاسم في الجنوب والجنوب الشرقي من تل سوكاس ، ونزولاً عند رغبة السلطات فقد قمنا بدراسة طوبوغرافية على حدود المدينة القديمة معتمدين على المصور التنظيمي لبلدية جبلة .

ولأسباب تاريخية وعملية فقد آثرنا البدء ببعض الاعمال في تل داروك ، هذا التل الذي يقع على الضفة اليسرى من نهر السن ، في منتصف الطريق بين ينابيع النهر وعرب الملك ، ويبلغ ارتفاعه ١٧،٦٦ متراً عن سطح البحر و١٢،٥٠ متراً عن الأرض المحيطة به ، أما طوله فيبلغ ٢٣٠ متراً من الشمال الى الجنوب ، وقد عثرنا في منحدراته على كسرات من عصر الحديد حتى العصر الاسلامي ، وقطع اخرى تعود الى عصر البرونز ، وكسرات من الخزف اليوناني والبازلت المنحوت ، ويبلغ عمق السبر الذي قمنا بحفره في هذا التل ١٠،٧٥ - ١١،٧٥ متراً وحوالي ستة أمتار على الساحل ، ويتألف من ستة وثلاثين طبقة تضم بقايا المساكن القديمة واحدث القطع التي عثر عليها فيه هي قطعة من الخزف تعود الى عصر المماليك من القرن الثالث عشر أو الرابع عشر . كما عثر خارج السبر على أحجار منحوته تعود في اغلب الظن الى برج قديم ، وتحمل تلك الحجارة تزيينات نافئة تشبه الى حد بعيد أحجار قلعة الصليبيين (توردن بود) او (بلدا) الواقعة على مصب النهر . وبين الاماكن التي تعود للعهد الصليبي لا يوجد الا مكان واحد في المنطقة يمكن تعريفه بتل داروك . أما كلمة السن فمن المرجح انها تشكل النصف الاخير لاسم مركب مثل قلعة السن او قصر السن او ما يشابهها ، وتضمّ الطبقات الستة والثلاثين بقايا أبنية قديمة و كسرات من الحجارة والفخار والبرونز وبعض المواد المتفحمة والخزف المطلي ... حتى ان الطبقتين الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين كانت تحتوي على كسرات من الخزف يشبه الى حد بعيد خزف تل عبيد ، وتل حلف . يبدو مما تقدم ان تل داروك كان آهلا بالسكان منذ أواخر الألف الرابع ق . م وأن

القرية البدائية انمـا نمت وتطورت ضمن اطار مدينة حقيقية ، وانه كان للمدينة هذه أهمية كبرى خلال العهود الوسطى والحديثة من عصر البرونز والحديد ، ومن ثم كان هناك تجمع حول هذه المدينه الواقعة على ضفاف نهر السن كما تشير الى ذلك النصوص الفينيقية والاشورية وأن هذه المدينة حسب النصوص المذكورة كانت تسمى « أوشناتو » « او سانات » « أوسانا » او « اوسنو » والتي كانت عاصمة لمملكة صغـيرة . وهنا أرانا نميل الى الاستنتاج بان تل داروك هو من بقايا تلك المدينة لأن نتيجة كهذه مستندة على ما يعثر عليه في الموسم الثاني يجعل من المستحيل القول بان مدينة تل سوكاس هي نفسها مدينه « أوشناتو » . ولو اننا عالجنا الموضوع من جديد لتبادر للذهن ما قام به الاستاذ « اولبرايت » من دراسه حول الاسم القديم لمدينة جبيل والذي كان « غوبلا » خلال عصر البرونز واصبح « غوبال » في عصر الحديد واشتقت منه اللغة العبريه فيما بعد جُبل واللغة العربية اسم جبيل . وقد تساءلنا ما اذا كان بامكاننا ان نتبع نفس الطريقة بالنسبة الى سوكاس أو شوكاس (كما أشار اليها هارتمـان) واعتبارهـا مشتقة من شوكسي ، وشوكسي اسم لمدينه قديمـة واقعة على الحدود الجنوبية لاوغاريت ، وتشير بعض النصوص التي تعود الى النصف الأول من القرن الثالث عشر ق . م الى وجود بعض الأراضى ذات الكروم الواقعة في شوكسي ، وأن تلك الكروم كانت مقسمة بين جماعتين دينيتين تعود الأولى الى اوغاريت والثانية الى سيانو ، وان ملك الحثيين الكبير كان يقر الحقوق التقليدية لاوغاريت وسيانو في أراضي شوكسي .

لنعد الآن الى حفريات سوكاس ، ولنتابع ما شرعنا به من الاعمال عام ١٩٥٨ ، تلك الاعمال التي أبانت بأن المنازل الفنية كانت واقعـة في وسط منطقة التجمع بينما البيوت التى كانت على مقربة من المنحدر الغربي والشمالي كانت أكثر تواضعاً ، في حين ان الحي الحكومي كان قائماً على ما يبدو في الشمال الشرقى حيث كان يقوم البرج الذي يرجع تاريخه الى القرون الوسطى ، وقد صرنا في دراسة هذا البناء حتى النهاية وعمدنا الى تهديم الجدران والارض ودرسناها مرحلة مرحلة حتى بلغنا الطبقة السادسة التى حسبناها الأرض الحقيقية لذاك البناء ، حتى اذا بلغنا الطبقة السابعة وجدنا القسم الشمالي منها مرصوفاً بالحجـارة المنحوتة بينما القسم المتوسط منها كان غضاري التركيب ويحتوي على خزف يعود الى القرن الثالث عشر كذلك يضم نقوداً تعود الى العهد البيزنطي والاسلامي الأموي ، وقد عثر في الطبقة الثامنة على آثار

النار تشير الى وجود موقد قديم وأبانت النقود التي عثر عليها في هذه الطبقة أنها تعود الى القرن العاشر .

اما المنازل التي عثر عليها في وسط التل فيبدو أنها كانت تستعمل في العصر الهنستي استعمالاً واسعاً بينما كان بعضها يعود الى عصر أقدم من العصر الهنستي وقد صممت تلك المنازل بطريقة خاصة شكل (٩) عرفت في تبة الحمام الواقعة جنوبي مدينة طرطوس والتي تعود الى القرن السادس حتى الرابع قبل الميلاد ، وكانت المواد التي يستعملها البناءون أنذاك هي الحجارة غير المنحوتة ، وان كانوا يعمدون بغية تقوية الجدران والزوايا والأبواب يعمدون الى كتل من الحجارة المنحوتة والتي كانوا يضعونها فوق بعضها البعض مكونين بذلك نوعاً من الدعائم المتماسكة التي تعرضت لبعض الهزات الارضية عام ١٤٧ و ١١٧ و ٦٩ ق . م وقد دلت الدراسة التي قمنا بها ان البيوت التي أصابتها الكارثة قد رممت ، بينما كشفت الحفريات في طبقاتها العميقة عن بقايا جرار كبيرة ذات عروات أفقية والتى يمكن تصنيفها في عداد النماذج العائدة الى القرن الخامس والرابع ق . م ، وفي مكان آخر من الاماكن التي أصيبت بالكارثة عثر على مجموعة خزفية مؤلفة من بعض الأواني والقوارير . . . وبالرغم من وجودها في مكان واحد فإنها لاتعود جميعها الى تاريخ واحد ، ومما لا شك فيه فإن تاريخ الكارثة المذكورة يمكن ان يحدد بتاريخ أحدث الأواني عهداً ، وهي قارورة من أصل قبرصي تعود الى عام ٩٥٠ — ٨٥٠ ق . م وبعد الدراسة والبحث في الموضوع تبين ان القطع الخزفية في المجموعة الآنفة الذكر تطابق ما عثر عليه من الخزف في الطبقة التاسعة عشر من تل داروك . وقد أشارت مكتشفات تل داروك وتل سوكاس ان المدينتين تعرضتا لنفس الحوادث المؤلمة حوالي ٨٥٠ ق . م وحتى بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون ، ويمكن تعليل تلك الكارثة على انها هزات أرضية او حملات حربية ، وإذا لم تتوفر لنا الادلة بعد على النوع الأول فقد توفرت بالنسبة للنوع الثاني . اذ هناك نوعان من الامكانيات التي من شأنها تزويدنا بالأدلة الأثرية ومنها حملات سلمنصر الثالث على سورية بين عام ٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م وكذلك حملات الملك البابلي نابونيد عام ٥٥٥ — ٥٣٨ فسلمنصر الثالث دخل سوريا الشمالية واستمر في تقدمه فيها حتى بلغ البحر الابيض المتوسط وكان ذلك في السنين الاولى لحكمه حيث هدم المدن وفرض الاتاوات على ملوك المنطقة الشمالية وقد تسنى لهذا الملك العودة الى سوريا اكثر من مرة لمجابهة الاحلاف القائمة بين ملك دمشق وحماه

والاحلاف القائمة بين الملوك الاثني عشر لساحل البحر الابيض المتوسط ، ومن بين هؤلاء الملوك ملك سيانو وأوشناتو . ولم يكتف الملك المذكور بحملاته البرية اذ نراه يقوم في عام ٨٥٣ – ٨٥٢ ق م بحملة بحرية وفي عام ٨٤٨ – ٨٤٧ ق م يتسلق جبـال الأمانوس وجبل كاسيوس (الاقرع) ويستولي في نفس المنطقة على مدينة وتسعة وثمانين ضاحية سام أهلها سوء العذاب . أما الكوارث التي حدثت في أواسط القرن السادس ق . م فتعزى الى المملكة الفارسية عام ٥٤٦ ، ويقول هيرودوت بهذا الصدد أن الفينيقيين قد خضعوا الى الفرس طائعين بينما على العكس من ذلك نرى نابونيد يقضي على الثورة المشتعلة في سورية ويقيم فيها عامين من ٥٥٣ – ٥٥٢ ق م . وبعد موت نبوختنصر عام ٥٦١ ارتبطت البلاد بالميديين ، ولم يسعدنا الحظ بعد بالعثور على أية قطعة أثرية من شأنها أن تكوّن الدليل على كارثة عام ٨٥٠ ق . . ولم يعثر خلال الحفريات على أية كسرة فخارية من الفخار السابق للأشكال الهندسية أو ذي الأشكال الهندسية بل وحتى لم يعثر على الخزف القبرصي المسمى بالخزف « الاسود على أحمر » الذي يوافق عادة خزف العصر السابق للأشكال الهندسية ، الامر الذي يجعلنا نستخلص أن الاستيراد اليوناني بل وحتى تمركز اليونانيين الذي يؤيده الفخار والكتابات اليونانية الموجودة فوق الخزف المحلي كان في عصر متقدم عن منتصف القرن التاسع ق . م ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه علينا الا نعمل على تخفيض التاريخ تخفيضاً كبيراً لاسباب كثيرة منها أنه عثر في حماه بين بقايا ماخلفه التدمير الآشوري عام ٧٢٠ ق . م عثر على قطع فخارية من عصر ماقبل الاشكال الهندسية ، وأن العصر الواقع بين ٨٥٠ – ٧٤٠ كان عصراً ملائماً لتأسيس مستعمرة أو مركز تجاري يوناني في تل سوكاس ، ففي عام ٨٥٣ – ٨٥٢ وحتى عام ٨٤٥ – ٨٤٤ كان ملوك سيانو وأوشناتو حلفاء الملوك حماه ودمشق ، إلا أن حماه كانت بعد الغزوات أقوى المراكز في ذلك القسم من سورية وذلك حتى عام ٧٤٢ حين قام ملك الآشوريين تيغلات بيلازار الرابع ، وضم إلى امبراطوريته المنطقة الساحلية بما فيهـا أراضي سيانو وأوشناتو ، وكذلك ضم اليه الأقاليم التسعة عشر والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحماه والتي كانت قد ثارت في وجه ملك هـذه المدينة ، ويبدو أن الدمار الذي سببه الغزو الآشوري في السنوات ٧٥٨ – ٨٤٨ جعل عدداً من المدن الساحلية خاوية جرداء ومنها مدينتي شوكسي واوشناتو . ومن الطبيعي أنه لم يكن من الصعب بالنسبة للتجار البحريين اليونانيين التمركز فيها لو أن السادة الحقيقيون للمنطقة قد

سمحوا بذلك . وبما أن خزف عصر ماقبل الأشكال الهندسية قد ظهر في حماه في بداية القرن الثامن ق . م فيترتب على ذلك إذن تحديد تمركز اليونان في تل سوكاس بين ٨٤٤ - ٨٤٠ ق . م وهذا التاريخ يتلاءم تماماً مع الوقائع التي برهنت عليها الحفريات الاخرى وحديثاً قال بعضهم بأن تأسيس المركز اليوناني كان على أرض بكر عند مصب نهر العاصي (الميناء قرب السويدية) عام ٨٢٥ ق . م ، وفي الواقع فإن الأشياء التي عثر عليها في تبة الحمّام الواقعة على بعد ١٥ كيلو متراً جنوب طرطوس تقودنا إلى نفس العهد ، ففي عصر الحديد المتقدم كان فيها تجمعات تشبه إلى حد بعيد تجمعات تل سوكاس فبيوتها بنيت بنفس الأحجار غير المصقولة ، ويبدو أن نصف الخزف الذي عثر عليه فيها كان خزفاً مستورداً من اليونان والجزر المجاورة ، كما وجد فيها مستودعات من الرمل وبقايا من بناء يعود إلى عصر البرونز القديم غير أنه لم يعثر على آثار لمدنية من عصر الحديد القديم أو الألف الثاني اللهم إلا كسرتين فخارتين قبرصيتين تعودان إلى عام ١٤٥٠ - ١١٠٠ ، وفي تلك الفترة عرفت كل من مدينة الميناء وتل سوكاس وتبة الحمام مرحلة من مراحل الاستقرار لانها لم تكن آنئذ محتلة أو كانت شبه محتلة .

وإذا كان صحيحاً انهم كانوا يأتون بفخار عصر ماقبل الاشكال الهندسية إلى تل سوكاس فإن الكؤوس التي عثر عليها في حماة يجب أن تكون صادرة عن نفس المركز التجاري الكائن في الميناء ، إذ أن المسافة بين تل سوكاس وحماة لاتزيد عن ٧٥ كيلو متراً بينما المسافة بين الميناء وحماه هي ١٢٥ كيلو متراً ، فمن تل سوكاس إلى حماة يمكن المسافر إتباع الطريق المستقيم المار بمحمد جوفين ولكن للذهاب من الميناء إلى حماه على المسافر أن يتحاشى بقدر الإمكان الطرق الجبلية الوعرة . وقد أجريت بعض المقابلات والتحقيقات مع بعض المتقدمين في السن في جبلة وحماه والذين كانوا إبان شبابهم يسلكون هذا الطريق كتجار أو مسافرين ، تلك التحقيقات التي جعلتني أحدد الطرق التي كانت مستعملة قبل إنشاء الطريق الجديد ، فمن جبلة ومن بابها الشرقي المسمى باب حماه كان التجار يمرون بسيانو ، قلعة صلاح الدين وعين الحياة ، وعين الكروم والمزحل ونهر البريد وتل سلحب ديو وكفر عمين في حماه ، أما من تل سوكاس فكان المسافرون يتبعون الطريق الآتي دوير بعبدا وإليا ، خان السياندبان ،

ابو قابس ، ديو ، كفر عمين ، ومن الطبيعي أن هذه الطريق ليست بطريق العربات وإنما هي طريق القوافل منذ القديم حتى أيامنا .

ولدى العمل في تل سوكاس في الطبقات التي تعود الى عهد البرونز عثرنا في أماكن شتى على كسرات من الفخار تعود الى الألف الثاني ق . م ويرجح ان البنائين في عصر الحديد غيروا أماكنها ، ونذكر على سبيل المثال : كسرات قبرصية الأصل ، شكل « ١٨ » ، وختمين اسطوانيين أحدهما من حجر الستياتيت شكل « ١٩ » نقش عليه انسان وعجل وأسد ، وأمام الرجل سيف . وهنا يمكن تفسير المشهد بنظرية الانسان الذي يحمي المواشي من الحيوانات المفترسة ، أما الختم الثاني فهو من حجر الهياتيت شكل « ٢٠ » ، وهناك أختام أخرى تحمل مشاهد مماثلة عثر عليها في تل العجول في فلسطين وقبرص ويمكن اعتباره من عصر البرونز الحديث أي من ١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق . م ، اما الهياكل العظمية التي عثر عليها في التل مصحوبة ببعض الأواني الفخارية فتعود الى عام ١٩٠٠ - ١٧٥٠ ق . م . وكما سبق ان قلنا فإن البعثة قامت ببعض الدراسات الطوبوغرافية في مدينة جبلة مستهدفة ايجاد حدود السور القديم للمدينة والذي لم يبق منه الا القليل ، الا ان بعض السكان ما زالوا يذكرون الحدود التي اختفت ، وقد تجلت نتائج ابحاثنا في المصور شكل ٢٥ والذي يلاحظ فيه ان المدينة الحالية قد احتفظت بعض الشيء بطريقة تنظيم الشوارع في المدينة الهلنستية والرومانية ، كما هي الحال في اللاذقية حيث كان المرفأ محاط بالمدينة . اما المسرح الروماني في جبلة فقد أصبح قلعة في القرون الوسطى وكذلك جامع السلطان ابراهيم الذي يشغل اليوم مكان كنيسة قديمة بنيت عام ٦٣٨ أي في عصر الأمبراطور هيرا كليوس (٦١٠ - ٦٤١) وهذا يعني قبل الغزو الأسلامي ، كل هذا كان ينسجم تماماً مع طريقة تنظيم المدن القديمة ، بينما سور المدينة كان يتمشى مع امتداد مدينة القرون الوسطى ، فاتجاه الجامع الكبير (جامع المنصوري) يختلف عن اتجاه الطرق القديمة حتى ولو كان هذا الجامع مبنياً على أساسات كنسية قديمة فليس هناك ما يدل على تاريخ أقدم من العصور الوسطى ويمكن أن يكون في الأصل مسجداً من العهد ما قبل اللاتيني ثم حوله الصليبيون الى كنيسة ثم أعيد من جديد الى المسلمين

أما المرفأ فكان بجزأ من الجهة الشمالية بمرتفع صخري يسمى اليوم مقر بيت زيفا ويرى ري REY فيه بقايا برج قديم كان يتجه من الشمال الى الجنوب ، وتقوم على شبه الجزيرة الصغيرة الواقعة في الجهة الجنوبية من المرفأ تقوم بعض التحصينات المبنية من الحجارة المنحوتة ، وعلى الهضبة المتجهة نحو المنحدر الشمالي أعمدة من الغرانيت الاسود . أما قمة الهضبة فقد قسمت بخطوط مستقيمة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد أن المكان كان سطحاً أوفسحة لمعبد ويرجح أن الاعمدة الآنفة الذكر جيء بها من هذا المكان .

لقد كان لمدينة جبلة أربعة أبواب وباب مجري يؤدي إلى المرفأ ، ويعرف الباب الشرقي باسم بوابة حماة والباب الشمالي الشرقي ببوابة السلطان (نسبة لجامع السلطان ابراهيم المجاور) أما الباب الشمالي الغربي فيعرف ببوابة الصليبي . ونعتقد أن المدينة القديمة التي كانت على شكل رقعة الشطرنج كانت من العهد السلوقي وانها بنيت على المرفأ الذي استخدمه سكان المدينة .

المعرب